مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(07)، العدد (01)، (جوان -2022)، ص 99-112
ISSN: 2602-5566 EISSN:2716-8999

دور الكنيسة الأرثوذكسية في توجيه السياسة الخارجية الروسية

The role of the Russian Orthodox Church in the orientation of the Russian foreign policy

عبد الكريم سبع[1] *، ميلود عامر حاج[2]

[1] مخبر بحث في تحليل السياسيات الشرق أوسطية، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية (الجزائر)، seba.abdelkarim@enssp.dz

[2] المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية (الجزائر)، algerpolicy@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/09 **تاريخ القبول: 2022/04/19**

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على محدد مهم من محددات السياسة الخارجية وهو المحدد الديني الذي يعتبر أحد وسائل القوة الناعمة التي يتم توظيفها من قبل الدول في سياساتها الخارجية إما لبلوغ مصالح وغايات معينة وإما لإضفاء الشرعية على سياساتها تجاه المناطق والدول الأخرى. وتعتبر روسيا واحدة من هذه الدول التي اتجهت منذ مطلع القرن الـ21م نحو توظيف البعد الديني في سياستها الخارجية عبر تعزيز أدوار الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ممثلة في بطريركية موسكو وعموم روسيا، ومن هذا المنطلق سيتم معالجة موضوع المقال وفق أربع محاور تم تخصيص المحورين الأول والثاني لدراسة تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية اضافة إلى علاقتها بالسلطة الحاكمة، أما المحورين الثالث والرابع فتم تخصيصهم لدراسة أدوار الكنيسة الأرثوذكسية بالدوائر والقضايا الاقليمية والعالمية التي لها ارتباط مباشر بالمصالح الروسية.

الكلمات المفتاحية: دين؛ كنيسة؛ أرثوذكسية؛ سياسة خارجية؛ روسيا.

Abstract

This article aims to shed light on an important determinant of foreign policy, which is the religious determinant, which is considered one of the soft power tools that countries employ in their foreign policies, either to achieve specific interests and goals or to legitimize their policies towards other regions and countries. Russia is one of these countries that, since the beginning of the 21st century AD, has tended to employ the religious dimension in its foreign policy by strengthening the roles of the Russian Orthodox Church represented by the Patriarchate of Moscow and the whole of Russia. Russian Orthodoxy is in addition to its relationship with the ruling authority. As for the third and fourth axes, they are devoted to studying the roles of the Orthodox Church in regional and global circles and issues that have a direct link to Russian interests.

Keywords : Religion; Church; Orthodoxy; Foreign Policy; Russia.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

مما لا شك فيه أن تحليل السياسة الخارجية لدولة معينة تجاه الدول والمناطق الأخرى يعتمد على العديد من المحددات، حيث يعمل كل محدد على تقديم تفسير منطقي لسياسات وسلوكيات الدول من زاوية معينة، ومن أهم هذه المحددات التي أصبح لها حضور قوي في سياسات الدول الخارجية **"الدين"**، خصوصا وأنه أصبح أحد الوسائل المهمة في السياسة الخارجية والذي يصنف في زمرة عناصر القوة الناعمة.

لقد تعاظم حضور المحدد الديني كأحد أذرع تنفيذ وتوجيه السياسة الخارجية للقوى الكبرى منذ بداية القرن الحادي والعشرين، وتعتبر روسيا واحدة من بين هذه القوى التي أولت البعد الديني اهتماما كبيرا، وهي التي عملت على اقصائه بتحييد المؤسسة الدينية الأولى في البلاد ممثلة بالكنيسة الأرثوذكسية وعلى رأسها **"بطريركية موسكو وعموم روسيا"** من الحياة السياسية والاجتماعية ردحا طويلا من الزمن، بداية من عهد الامبراطور بطرس الأكبر الذي كان يحمل مشروعا علمانيا أراد أن يحاكي به نمط الحياة في الدول الأوروبية، ومن ثم عهد الاتحاد السوفيتي الذي لم تجمعه علاقات جيدة ببطريركية موسكو نظرا لبعض الاختلافات العقيدية والسياسية. وبالتالي فقد اتجهت النخب الجديدة الحاكمة في روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي إلى ترميم علاقتها مع قادة الكنيسة الأرثوذكسية أين أصبح للكنيسة حضورا قويا في السياسة الروسية داخليا وخارجيا.

تكمن أهمية البحث في أنه يسلط الضوء على أحد وسائل القوة الناعمة الذي يشكل محددا مهما في فهم وتفسير السياسة الخارجية الروسية وهو "**الدين**"، حيث كان غائبا في العديد من الدراسات والأبحاث العلمية خصوصا العربية التي كانت تهدف إلى تحليل السياسة الخارجية الروسية سيما في ظل التطورات الدولية الحالية، أين أصبح للدين دور مهم في السياسة الخارجية الروسية إما من خلال الضغط الذي تقوم به الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على صناع القرار الروس بشأن قضايا معينة ذات بعد ديني، أو تقديم غطاء ديني للسياسات الخارجية الروسية تجاه بقية المناطق والدول التي تدخل ضمن مجال المصالح الروسية.

2- الإشكالية:

بناء على ما تقدم سيتم دراسة البعد الديني في السياسة الخارجية الروسية انطلاقا من الدور الذي تلعبه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ممثلة في بطريركية موسكو وعموم روسيا على ضوء الاشكال التالي:

كيف تساهم الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في توجيه وتنفيذ السياسة الخارجية الروسية؟

وكإجابة مؤقتة على سؤال الاشكالية المطروح تم اقتراح الفرضية التالية كحل مؤقت، والذي سيجري التحقق من صحتها في ثنايا البحث، وتتلخص الفرضية في أنه:

كلما أولت النخب الحاكمة في روسيا إهتمامها بالكنيسة الأرثوذكسية كلما ساهم ذلك في اضفاء الشرعية على السياسة الخارجية الروسية.

3- تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية

قبل التفصيل في الدور الذي قامت به الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على صعيد السياسة الخارجية الروسية، وقبل التطرق لمواقف الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ممثلة في بطريركية موسكو سواء تجاه بعض التطورات ذات الارتباط المباشر بالعمق الروسي في منطقة الخارج القريب مثل جورجيا وأوكرانيا أو تجاه دول تربطها مصالح مباشرة بروسيا مثل سوريا، لابد من استحضار السياق التاريخي للكنيسة الأرثوذكسية في روسيا من أجل فهم حقيقة الدور الذي تلعبه الكنيسة الأرثوذكسية في السياسة الخارجية الروسية في مختلف القضايا وطبيعة العلاقة التي تربط الكنيسة بالمؤسسات الرسمية في روسيا.

فوفقا للتقاليد الخاصة بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، فإن تاريخ الكنيسة يمتد إلى ما قبل عماد الأمير **فلاديمير الأول (الكبير) Vladimir Ier** سنة 988م، حيث تأسست الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من قبل الرسول أندرو André، حيث هناك مزاعم تؤكد بأنه أقدم على زيارة سيثيا والمستعمرات اليونانية الواقعة على طول الشريط الساحلي الشمالي للبحر الأسود، ويقال أيضا بأنه تنبأ بتأسيس مدينة مسيحية عظيمة وكان يقصد (كييف) ,New World Encyclopedia (n.d)، لعل هذا ما يفسر الاهتمام الكبير الذي أبداه رجال الدين الروس وعلى رأسهم البطريرك كيريل Cyrille بأوكرانيا خصوصا بعد اندلاع أزمة 2014م نظرا لكونها جزء من التراث الديني الأرثوذكسي فهي تعتبر مهد المسيحية الأرثوذكسية

وبعد وقوع الأراضي السلافية تحت التأثير الثقافي للإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطا) إيذاناً بانطلاق عمليات تنصير السلافيين الذي بدأ بأعمال كل من **سانت سيريل Saint Cyril** و**ميثودوس** اللذين أشرفا على ترجمة أجزاء من الكتاب المقدس إلى اللغة السلافية القديمة للكنيسة في الفترة الممتدة من 863م – 869م، كما تشير بعض الأدلة على أنه في نفس الفترة تم ارسال أول أسقف من القسطنطينية نحو مدينة نوفوغورود. وبالقرن العاشر ميلادي تَكَوَّن رسميا أول مجمع مسيحي من بعض النبلاء في كييف تحت قيادة كهنة يونانيين وبيزنطيين على الرغم من أن الوثنية في تلك الفترة كانت ما تزال هي الدين السائد. ويعود فضل تحويل **كييف روس** للمسيحية إلى الأميرة **أولغا Olga**، ليعلن بعد ذلك حفيدها الأمير فلاديمير الأول (الكبير) **كييف روس** دولة مسيحية وتبنى الطقوس المسيحية البيزنطية عام 988م (New World Encyclopedia).

وقد أصبحت العلاقة بين الكنيسة والدولة أكثر تناغماً وأكثر انسجاماً ويتقاسمان المسؤوليات لتحقيق الغاية الإلهية، حيث حقق هذا التناغم منافع متبادلة، أين تلازم التبشير الذي قامت به الكنيسة بين القبائل الوثنية مع تمدد السلطة السياسية واتساع رقعة الدولة

الروسية ومنحت الكنيسة الأمير الذي سيصبح لقبه المستقبلي (القيصر) مصدراً جديداً للشرعية بجانب القوة المادية: فسلطته مستمدة من تفويض إلهي (الخثلان، د.ت، صفحة 7).

وبعد تحرر الأراضي الروسية من التتر والمغول نشأت في القرن الخامس عشر **"نظرية روما الثالثة"** حيث تقول هذه النظرية بأن روما الأولى سقطت على أيادي البرابرة الجرمان وسقطت روما الجديدة (القسطنطينية) على أيادي العثمانيين وبالتالي أصبحت موسكو عاصمة المسيحية (قربان، جوان 2017، صفحة 19). وقد ساهمت هذه النظرية في اضفاء الطابع الديني على السياسات الروسية وكانت مصدرا لشرعنة السلوكات الروسية تجاه الدول الأخرى آنذاك، وعلى هذا الأساس تبنت سياسة حماية الأقليات المسيحية في مختلف المناطق خصوصا تلك الواقعة تحت سلطة الدولة العثمانية، بالإضافة إلى توظيف البعد الديني في صراعها مع الدولة العثمانية (الخثلان، صفحة 08).

بعد فترة من الزمن على تنصير دولة **كييف روس** شهدت الكنيسة الأرثوذكسية حدثا تاريخيا مهما عام 1054م حيث كانت سنة الانشقاق الكبير بين كنائس الغرب الكاثوليكي والشرق الأرثوذكسي والذي مهد للاستقلال النهائي للكنيسة الأرثوذكسية عن البيزنطيين عام 1589م (Petrenko,6 July 2012, 03) ، ويعود الفضل في ذلك إلى المناضل **بوريس غودونوف Boris Godounov** الذي خلق بطريركيات موسكو دون إذْن القسطنطينية (قربان، 19).

وقد استمر دور الكنيسة في التعاظم وصولا إلى عهد القيصر **بطرس الأكبر Peter I** الذي حاول أن يحد من سلطة ونفوذ المؤسسة الدينية في الحياة العامة باتباعه مجموعة من الاجراءات التي كان من بينها: إلغاء منصب البطريرك وانشاء مجلس لإدارة الكنيسة بمشاركة موظفين حكوميين، وتجديد وظائف وأدوار رجال الكنيسة وحرمانها من العديد من الأراضي، ويدخل هذا ضمن مشروعه الهادف إلى تحديث روسيا، وعلى إثر هذا أصبحت الكنيسة تحت حكم الامبراطور (الخثلان، صفحة 08).

وبعد فترة وجيزة من نهاية الحكم التساري على يد البلاشفة عام1917م، أُعيد انتخاب البطريرك الجديد لحكم الكنيسة، لكن هذا لم يدم طويلا، حيث صدر في 23 جانفي مرسوم تم الاعلان فيه عن الفصل بين الكنيسة والدولة والنظام التعليمي، وحرمت الكنيسة من امتلاك الممتلكات، وعلى الرغم من أنه سُمح للكنيسة رسميا بالعمل إلا أنه كان هناك غموض في مواقفها بالمجتمع السوفيتي (Petrenko, p 03).

ويعود السبب في تحييد الكنيسة الأرثوذكسية عن الحياة السياسية والعامة للدولة من قبل الشيوعيين هو الموقف الذي اتخذته الكنيسة في الحرب الأهلية عام 1917م حيث وقفت إلى جانب الجيش الأبيض (New World Encyclopedia)، واستمر الوضع على نفس الحال إلى غاية الحرب العالمية الثانية، بإقدام السلطات السوفيتية على اعادة تأسيس البطريركية من أجل حشد

الشعب وتجنيده لمواجهة الغزو النازي، كما لعبت الكنيسة فيما بعد أدوار غير رسمية سيما دورها كوسيط بين الاتحاد السوفيتي والقوى السياسية الأجنبية التي سعت للتأثير على الشعب السوفيتي (Petrenko, 03).

لكن العودة القوية للكنيسة الأرثوذكسية الروسية كانت مع نهاية الثمانينات وتحديدا في فترة ما يعرف بالبيروستيكا والغلاسنوست التي أعلن عنها **ميخائيل غورباتشوف Mikhaïl Gorbatchev**، ومع انهيار الاتحاد السوفيتي ألغيت جميع القوانين السابقة التي تحد من أنشطة الكنيسة ووضعها القانوني وأُعيد بعثها من جديد (Petrenko, pp 03-04).

4 - العلاقة بين الكنيسة والسلطة في روسيا وأثرها على السياسة الخارجية

رسميا بدأت العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسية والسلطة في روسيا مع انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بداية من العام 1990م بتأسيس المجلس الرئاسي للتعاون مع الرابطة الدينية ومجلس الأديان في روسيا، بالاضافة إلى الاتفاقيات التي تم ابرامها من قبل البطريرك آلكسي Alexis II مع وزارات الدفاع والداخلية والطوارئ وحكومة الحدود الاتحادية بين عامي 1994م و1995م (Laine, Saarelainen, September2017,p 16**)**.

شهدت العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والأجهزة الرسمية في روسيا توطدا أكثر مع صعود **فلاديميير بوتين VLADIMIR PUTIN** إلى سدة الحكم، حيث قدمت الدولة مساعدات مالية للكنيسة كما ساهمت في بناء الأديرة والأبرشيات، وعلى الرغم من عدم وجود تمويل مباشر من قبل الدولة لفائدة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية فقد تحصلت الكنيسة بين عامي 2013م – 2015م على أكبر حصة من المنح الحكومية المخصصة للمنظمات غير الربحية (Laine, Saarelainen, p15).

أما على صعيد التعاون بين الدولة والكنيسة الأرثوذكسية، فقد حدد المطران كيريل– الذي خلف فيما بعد ألكسي الثاني على رأس بطريركية موسكو وعموم روسيا- في سياق حديثه عام 2001م بالأكاديمية الدبلوماسية الروسية The Diplomatic Academy Of The Russian (M.F.A) ثلاث أبعاد للتعاون (Lomagin, July2012, p10):

- استعادة روسيا وعقارات الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والقطع الفنية التي فقدت بعد عام 1917م، بالإضافة إلى استعادة الكنائس الأرثوذكسية في الخارج.
- الدفاع على حقوق المواطنين الروس بالداخل والخارج بما فيها حقوق الأرثوذكس.
- الالتزام بمبدأ تعدد الأقطاب في العلاقات الدولية.

يبدو أن التقاطع في الأهداف هو الذي ساهم في تطور العلاقة بين الكنيسة والدولة وجعل للكنيسة دور كبير خصوصا على صعيد السياسة الخارجية، ففي الوقت الذي تسعى فيه النخب

الحاكمة في روسيا إلى ترميم واقع ما بعد الاتحاد السوفيتي، واستعادة نفوذها بالأراضي التي كانت تحت سلطة الاتحاد السوفيتي والتي تعرف مجازا بمنطقة الخارج القريب، تتجه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية نحو نفس المسعى لكن بجمع شتات الكنائس الأرثوذكسية في المنطقة، وبالتالي يصبح المحدد الديني واحد من المبررات المهمة للسياسات الروسية في دول الجوار(أوكرانيا مثلا). علاوة على هذا يتفق كلا الطرفين الكنيسة والدولة على بنية النظام الدولي حيث يؤكدان على ضرورة الالتزام بالنظام المتعدد الأقطاب.

ولعل ما يؤكد على أن الكنيسة الأرثوذكسية قد استعادت المكانة التي كانت تحتلها في الدولة الروسية قبل وصول بطرس الأكبر إلى سدة الحكم مثلما ذُكر آنفا، هو اظهار المسؤولين الروس لانتمائهم الكنسي الأرثوذكسي علانية، فعلى سبيل المثال تحدث بوتين فيما مضى على عقيدته الأرثوذكسية بل وسعى إلى سن قوانين للإبقاء على هيمنة الكنيسة في روسيا. كما تم السماح لرجال الدين بالتدخل في بعض الحالات السياسية كدليل بارز على تعاظم تواجدها في المجتمع الروسي العلماني وقد أكد على هذا الرئيس الروسي الأسبق **ديمتري ميدفيدف Dmitri Medvedev** عندما قال:" من أجل الاستقرار الاجتماعي. (الدولة والكنيسة) يحتاج إلى أن يعملا مع بعض بشكل لم يسبق له مثيل" (Lomagin, pp 08-10).

تجدر الاشارة إلى أن التعاون بين الكنيسة والدولة على صعيد السياسة الخارجية لا ينفي وجود بعض مظاهر الاختلاف التي تشوب العلاقة بين الطرفين فيما يتعلق بالمشاكل الداخلية (التعليم -الاصلاح العسكري- نظام الرعاية الصحية -احتفالات الأعياد الوطنية... إلخ) (Petrenko, 06)، لكن رغم هذا التعارض يبقى كل من الكنيسة والدولة وجهين متكاملين لعملة واحدة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، حيث يعتبر العامل الديني جد مهم في تشكيل توجهات السياسة الروسية حسب ما تبرزه وثائق السياسة الخارجية الروسية خصوصا تلك الصادرة عام 2008م و2013م التي توجد فيها اشارات واضحة على تزايد دور الدين على الساحة الدولية وتأكيد متكرر على البعد الحضاري في العلاقات بين الشعوب والتنبيه لما يوصف بتكتل الحضارات ومحاولات فرض أنظمة قيمية بوصفها قيما انسانية مشتركة (الخثلان، صفحة 10).

كما تعمل روسيا أيضا على توظيف البعد الديني في صراعها مع الغرب الذي ارتفعت حدته مع عام 2012م المصادف لعودة فلاديمير بوتين إلى سدة الحكم، حيث في الكلمة التي ألقاها بطريرك روسيا وعموم موسكو كيريل أمام مجلس الدوما، هاجم بشدة منظومة القيم الغربية حيث يرى في "حرية الاختيار المطلقة" على حد تعبيره قنبلة موقوتة تنسف جميع القيم الأخلاقية، وقال أيضا: "نحن نرى المأساة التي تنقلب إليها الحرية المفهومة خطأ"، مستعرضا في كلمته ثمار القيم الغربية القاتلة على حد تعبيره من شرعية زواج المثليين، إلى اباحة القتل الرحيم وما إلى

ذلك من القيم الناتجة عن ابتعاد الغرب عن الدين ومفهوم العدالة السماوية بلسان البطريرك (أوليغ إيغوروف، 25 فيفري 2015).

ويسير صانع القرار في روسيا على نفس الخط الذي تخطه الكنيسة الأرثوذكسية بالدفاع عن القيم الدينية المقدسة، حيث في خطابه السنوي أمام مجلس الاتحاد في ديسمبر 2013م انتقد الرئيس فلاديمير بوتين النزعة نحو ما وصفه بتدمير القيم التقليدية باسم حرية الفكر والآراء(الخثلان، صفحة 11)، وهذا يعيد إلى الأذهان حادثة بوسي ريوت **Pussy Riot** حيث قدمت مجموعة بانك حفل فني في كاتدرائية المسيح المقدس تنتقد فيه الرئيس بوتين وتحيز الكنيسة الأرثوذكسية للنظام الروسي، وهو الذي أدى بالرئيس بوتين إلى توقيع قانون في جوان 2013م يجرم الاساءة لمشاعر المؤمنين ويعاقب عليها بالسجن وقد تم تطبيق هذا القانون عدة مرات على سبيل المثال عام 2017م، عندما تلقى مدون فيديو روسي عقوبة بالسجن لمدة ثلاث سنوات ونصف بعد اساءته الدينية من خلال لعبة بوكيمون غو**Pokémon Go** داخل كنيسة جميع القديسين في يكاترينبرغ (Laine, Saarelainen, pp 15-16).

وذكر بوتين أيضا في نفس الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس الاتحاد؛ أن هناك تأييد لتوجهات روسيا لحماية القيم التقليدية التي تعد الأساس الروحي والأخلاقي للحضارات، ففي عام 2012م نشرت انترفاكس (وكالة أنباء روسية خاصة) خبرا بأن بوتين حينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء وخلال لقائه مع قادة الكنيسة الأرثوذكسية وعد بالدفاع عن المسيحيين الذين يتعرضون للظلم خارج روسيا وجعل هذا من مهام السياسة الخارجية الروسية (الخثلان، صفحة 11)، وهو ما يتطابق مع تبرير البطريرك كيريل للتدخل الروسي في روسيا على اثر الأزمة السورية، حيث وصف الحرب التي أعلنتها روسيا بـ "الحرب المقدسة" والحجة الدينية الرئيسية للكنيسة والدولة هي أن الدولة مهتمة بمعاناة المسيحيين بالمنطقة (إيغوروف،25 فيفري 2015).

وبالتالي ما يمكن استنتاجه في آخر هذا المحور أن البعد الديني ممثلا في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وعلى وجه الخصوص بطريركية موسكو قد استعاد مكانته ونفوذه في الدولة الروسية، وهذا يتضح من خلال التقارب بين صناع القرار في روسيا وقادة الكنيسة الأرثوذكسية في عديد القضايا والمواقف سيما القضايا الخارجية، ولعل تعاظم دور الكنيسة وأهميتها لدى النخب الحاكمة يعود بدرجة كبيرة إلى ادراك منهم لأهمية الجانب الروحي الذي كان مغيبا لفترة طويلة في استعادة مكانة روسيا الاقليمية ومن ثم العالمية خصوصا في ظل التقارب في الأهداف والمصالح بين الطرفين، وسيتم إبراز أهم الأدوار التي لعبتها الكنيسة الأرثوذكسية بالسياسة الخارجية في المحاور القادمة عندما يتم التطرق إلى أهم القضايا التي كان لروسيا حضورا كبيرا فيها.

5- الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في الخارج القريب "من دعم التكامل إلى الانخراط في الأزمات"

من المفارقات في النصف الأول من عام 1990م أن يكون الكنيسة الأرثوذكسية والشيوعيون هما فقط من دعم بقوة عمليات اعادة التكامل في الفضاء السوفيتي على الرغم من حالة التنافس التي شابت علاقتهما في فترة الاتحاد السوفيتي (Lomagin, p 06)،وعلى هذا الأساس تتجه الكنيسة نحو ارساء معالم مفهوم العالم الروسي "**Russkii Mir**" الذي لعب جزءاً مهما في السياسة الروسية لسنوات طويلة ويشير المفهوم إلى جميع الروس الذين تجمعهم ثقافة ولغة واحدة شاملا بذلك الروس المتواجدين في دول الاتحاد السوفيتي المنحل (Laine, Saarelainen, p 07).

وقد اتجهت الكنيسة إلى تطبيق هذا المفهوم ولكن من الناحية الروحانية، ففي خطاب الكنيسة مفهوم العالم الروسي يشبه مفهوم روسيا المقدسة **Holy Rus** والعلاقة الروحانية بين جميع الروس، فحسب ميخائيل سوسلوف "الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تقدم نفسها بوصفها القوة التكاملية الوحيدة في فضاء ما بعد الاتحاد السوفيتي" (Laine, Saarelainen, p08)، أين تسعى إلى أن لا تكون أنشطتها مقيدة بحدود الدولة وهذا ما أكد عليه البطريرك كيريل في خطاباته والدليل على ذلك أنه يعرض الأعلام الوطنية لجمهوريات الاتحاد السوفيتي في جميع أنحاء عرشه (Cwiek-Kapowicz,09 August 2010, p 337).

بداية تجميع تركة الاتحاد السوفيتي بدأت مع بطريرك موسكو الأسبق آلكسي الثاني الذي شجع وحدة المثلث السلافي Slavic Triangle الروسي - البيلاروسي - الأوكراني، حيث شاركت الكنيسة عام 1990م في العديد من الأنشطة توقيع الاتحاد الروسي - البيلاروسي، كما شجعت على انشاء دولة روسية - بيلاروسية موحدة عام 1991م، كما كان آلكسي الثاني حاضرا عام 2000م في أعمال مؤسسات الدولة الروسية-البيلاروسية الموحدة. فيما بعد اتجهت الكنيسة الأرثوذكسية في عهد كيريل نحو تأسيس علاقات جيدة مع الكنائس الأرثوذكسية في الخارج القريب، وقد كان الانجاز الكبير عام 2011م بالاقتراب من الكنائس الأرثوذكسية في كل من أوكرانيا ومولدافيا (Laine, Saarelainen, p03)، فالكنيسة تعمل على رعاية المبادرات الرامية إلى الربط بين المسيحيين عبر أوروبا الشرقية وتعزيز فكرة الهوية المشتركة وهو ما من شأنه تعزيز نفوذ روسيا في الخارج القريب (Dimitrova, July 2017, p22).

شُهد للكنيسة الأرثوذكسية الروسية بعض الأدوار في الأزمات التي حدثت في منطقة الخارج القريب، سيما تلك ذات الارتباط المباشر بموسكو، وإن شاب مواقفها الاعتدال والتحفظ خصوصا في الحرب الجورجية-الروسية عام 2008م لعديد الأسباب أهمها تفادي حدوث انقسامات بين المسيحيين الأرثوذكس، بالإضافة إلى انخراط الكنيسة في الأزمة الأوكرانية والتي كان لها حضور

قوي بها نظرا للأبعاد التي أخذتها الأزمة بإضفاء الطابع الديني على الأزمة التي تفاقمت بضم روسيا لشبه جزيرة القرم عام 2014م.

فعلى صعيد الحرب الجورجية-الروسية عام 2008م، كان موقف الكنيسة جد ناقد خلال الحرب التي دارت ولأول مرة بين دول ذات أغلبية مسيحية أرثوذكسية منذ حرب البلقان الأولى عام 1913م، فقد عمل بطاركة كل من روسيا وجورجيا على اصدار نداءات قوية وفورية من أجل احلال السلام(Lomagin, p06)، بحيث حافظ البطريرك كيريل على علاقات جيدة مع الكنيسة الأرثوذكسية الجورجية واعترف بسلطة الأخيرة على أراضي كل من أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية على الرغم من استقلالهما الذاتي عن جورجيا(cwiek-Karpowicz, p373) ، كما رفضت بطريركية موسكو الاعتراف بمحاولة انفصال الكنيسة الأرثوذكسية في أبخازيا عن الكنيسة الجورجية، وعملت الكنيسة على لعب دور الوساطة كقناة اتصال غير مباشرة بين حكومتي روسيا وجورجيا (Laine, Saarelainen, p 03).

الكنيسة كانت حاضرة أيضا وبقوة في المشهد الأوكراني المتمثل في الأزمة التي أطاحت بحكومة **فيكتور يانكوفيتش Viktor Yanukovych**، حيث تعتبر الأزمة الأخطر في الفناء الخلفي لروسيا منذ نهاية الحرب الباردة نظراً للأبعاد الجيو-استراتيجية التي آلت إليها أحداث الأزمة.

فحيثيات هذه الأزمة تعود إلى عام 2013م بإقدام المعارضة على القيام بمجموعة من الاحتجاجات في ميدان كييف ردا على قرار الحكومة تأجيل التوقيع على اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي بمقابل توسيع العلاقات مع روسيا. وقد أسفرت تطورات الأحداث في أوكرانيا عن اعادة البرلمان العمل بدستور عام 2004م الذي يحد من سلطات الرئيس ويعزز من سلطات البرلمان والحكومة، كما تم اسقاط قانون منع التظاهر والافراج عن المعارضة **يوليا تيموشينكو Ioulia Tymochenko**، ليصل المشهد الأوكراني إلى عزل الرئيس الأوكراني والتدخل الروسي عسكريا لضم شبه جزيرة القرم بعد استفتاء تقرير المصير الذي صوت فيه الأغلبية لصالح الانضمام إلى روسيا (جودة، 2016، صفحات 208-212).

أوكرانيا لديها مكانة كبيرة لدى رجال الدين الأرثوذكس في روسيا، خصوصا شبه جزيرة القرم التي تعتبر نقطة خلاف محورية في النزاع الروسي – الأوكراني، فهي مسقط رأس الروح الروسية المقدسة حيث تم تعميد الأمير فلاديمير حاكم كييف روس على يد المبشرين الأرثوذكس في بلدة "تاوريس خيرسون" على ضفاف البحر الأسود (فيشان، 26مارس 2014، صفحة 03)، وهو ما جعل الرئيس بوتين يضفي الطابع القدسي على ضم شبه جزيرة القرم من أجل شرعنة هذه الخطوة، ففي الاجتماع الأخير للجمعية الفيدرالية في ديسمبر 2014 صرح بوتين أن لضم شبه جزيرة القرم دلالة مقدسة بالنسبة لروسيا، لأن الأمير فلاديمير نال العماد هناك بالذات (إيغوروف)

فيما يتعلق بدور الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ولو أنه كان جليا إلا أنه قد واجهته مجموعة من الصعوبات للعديد من الأسباب وأهمها؛ انقسام الأوكرانيين بين كنيستين، وهذا الشرح يعود إلى فترة التسعينات بانقسام الكنيسة الأرثوذكسية إلى فرعين (Laine, Saarelainen, p03):

- الكنيسة الأرثوذكسية التابعة لبطريركية كييف (UOC KP).
- الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية التابعة لبطريركية موسكو.

والكنيسة الأرثوذكسية التابعة لبطريركية كييف ليست جزء من بطريركية موسكو، كما أن العالم الأرثوذكسي لا يعترف إلا بالكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية الملحقة ببطريركية موسكو، وقد ساهمت الأزمة الأوكرانية في ايضاح الصراع بين الكنيستين، عندما تبنى كلاهما مواقف متناقضة من الحرب في أوكرانيا، حيث عملت بطريركية كييف على دعم احتجاجات الميدان الأوروبي Euromaidan، في حين كانت بطريركية موسكو مرتبطة بشكل وثيق مع يانكوفيتش الرئيس المخلوع ونظامه المعادي للغرب (Laine, Saarelainen, p 21).

ورغم ما أسفرت عنه الأحداث من اتساع الفجوة في العلاقات بين روسيا وأوكرانيا، ورغم الصراع الديني الكنسي – الكنسي بين بطريركية موسكو وبطريركية كييف، فقد بادرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ممثلة في شخص قائدها البطريرك كيريل بمساعي من أجل تقليص الفجوة بين الإخوة الأعداء، بحيث حاول كيريل تحقيق الهدنة باسم الوحدة عشية الذكرى الألف لوفاة الأمير فلاديميير الكبير، حيث كتب إلى الرئيسين بوتين وبورتشينكو يدعوهم إلى السلام في ذكرى المعمدان الروسية المقدسة الذي ينص على أسس الوحدة الروحية بين الشعبين الروسي والأوكراني الذين علمانا قيم المحبة والتسامح المسيحية على حد تعبير البطريرك كيريل (Simons, Septembre 2016, p 07).

6- دور الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في الأزمة السورية

تعتبر الأزمة السورية من أخطر الأزمات التي شهدها القرن الحادي والعشرين، ففي البداية كانت عبارة عن مجموعة من الاحتجاجات في مدينة درعا ضد النظام السوري، وقد كانت امتداد للحراك الشعبي الذي شهدته المنطقة للمطالبة بمجموعة من الاصلاحات، ومن ثم انتشرت الاحتجاجات لباقي المدن والبلدات الساحلية والشمالية نتيجة السياسات الاقتصادية المتبعة و« القمع » الذي تعرض له أبناؤها، وقد اتسع نطاق الحركة الاحتجاجية وتصاعد سقف شعاراتها لتصل إلى مطالب "اسقاط النظام" الذي نزل الحركة الاحتجاجية في خطاب المؤامرة والصهيونية والتدخل الخارجي (واكيم، جانفي 2014، صفحة 206).

لكن الأحداث فيما بعد أخذت منحى آخر ودخلت سوريا واقع جيو-استراتيجي جد معقد، أين أخذت أبعاد اقليمية ودولية من أجل فرض أجندات معينة وخلق واقع جيو-استراتيجي جديد، والمآلات التي أخذتها الأحداث فيما بعد تؤكد ذلك، ولعل ما ساهم في تعقيد الملف السوري هو تباين مواقف أهم القوى الكبرى في العالم التي لها ارتباط مباشر بما يحدث في سوريا منذ عام 2011م، حيث أبان الوضع السوري عن صراع دولي بين الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين من جهة و روسيا والصين من جهة أخرى (مدني، جانفي 2014 صفحة ،211).

أما بخصوص الموقف الروسي وهو محور الدراسة كان الأكثر تشددا على المستوى الدولي بخصوص ما يجري في سوريا، حيث رفضت روسيا منذ اللحظة الأولى أي ادانة لممارسات بشار الأسد، وتبنت موقف النظام السوري، الذي ينفي وجود ثورة وأن ما يحدث في سوريا هو عبارة عن مواجهة مع مجموعات متطرفة (جودة، صفحة 189)، فروسيا منذ بداية الأزمة وإلى غاية الوقت الراهن استخدمت الفيتو 11 مرة (محفوض، 2018، صفحة 04).

وقد كانت هناك العديد من الدراسات التي تطرقت إلى الموقف الروسي من الأزمة السورية الذي عملت على دراسته من العديد من المداخل سيما بعد القرار الروسي بالتدخل مباشرة في سوريا وهو التدخل الأول من نوعه منذ أن فقدت روسيا آخر قواعدها في الشرق الأوسط بأفغانستان عام 1979م، إلا أن أغلب هذه الدراسات أغفلت عامل مهم وهو الذي أضفى الشرعية والقدسية على التدخل الروسي المتمثل في العامل الديني والذي يمكن لمسه من خلال موقف بطريركية موسكو وعموم روسيا.

فمع بداية العمليات العسكرية لروسيا الاتحادية في سوريا بسبتمبر 2015م نقلت وكالة انترفاكس للأنباء عن رئيس قسم الشؤون العامة في الكنيسة **فسيفولد تشابلن Vsevolod Chaplin** تصريحا بأن: "القتال في سوريا ضد الإرهاب هو معركة مقدسة، وربما تكون بلادنا هي القوة الأنشط في العالم التي تقاتله"، وقد تأكد الموقف الرسمي للكنيسة من التدخل العسكري عبر بيان صدر بعد أسبوعين من التدخل عبر فيه البطريرك عن دعمه للتدخل العسكري مبرراً ذلك بفشل العملية السلمية في انهاء الصراع ما استدعى توفير الحماية العسكرية للمدنيين، وقال: "إن السلطات الروسية اتخذت قرارا مسئولا باستخدامها القوة العسكرية لحماية الشعب السوري ضد الإرهابيين وتمنى أن يعيد هذا التدخل تحقيق السلام و العدل" (الختلان، صفحات 22-23).

كما عملت الكنيسة على توجيه رسالة أخلاقية مفادها أن الانخراط في سوريا هو عمل فاضل، يهدف إلى انقاد الأقليات المسيحية بالإضافة إلى أن القائمين على رأس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يشددون على أن الأقليات المسيحية تحت رعاية الأسد(Barry, 31 May 2012) ، وقد كان الحدث الأبرز منذ بداية الأزمة السورية هو الزيارة التي قام بها البطريرك كيريل في نوفمبر 2011م ولقائه الرئيس السوري بشار الأسد وعدد من المسؤولين السوريين وقد أكد على الأهمية الخاصة

لسوريا باعتبارها مهد المسيحية حيث تقع كنيسة أنطاليا التي تتمتع بمكانة خاصة في التاريخ المسيحي، وعبر عن قلقه من موجة الاحتجاجات السياسية في الوطن العربي وأثارها السلبية على الأقليات المسيحية ووصف زيارته لسوريا فيما بعد بأنها تعبير عن الإرادة الإلهية (الخثلان،23).

وقد عملت الكنيسة الأرثوذكسية على اصدار العديد من البيانات بداية من عام 2013م بخصوص ما يجري في سوريا والدعوة إلى مراعاة معاناة المسيحيين وتعاظم نشاط الكنيسة إلى درجة مراسلة البطريرك كيريل لباراك أوباما في سبتمبر 2013م أعلن فيها عن قلقه تجاه مؤشرات لنية واشنطن التدخل العسكري محذرا من أن التدخل سيزيد من معاناة المدنيين ويمكن القوى المتطرفة من الوصول للسلطة ما من شأنه تهديد وجود الأقلية المسيحية (الخثلان، صفحة 23).

وقد أبانت الأزمة السورية عن وجود صراع قيمي حضاري بين كنائس الشرق الأرثوذكسية و الغرب عندما ادعى بطريرك موسكو بأن الحرب في سوريا هي حرب مقدسة في ظل تغافل الغرب، بل و تهجم على حالة الانحلال الأخلاقي التي يعيشها الغرب وحقيقة ما بعد المسيحية وعدم اتباع الغرب للتعاليم والقيم المسيحية الحقيقية وقمع الأشخاص الذين لا يوافقون على التشريع الليبرالي الجديد بخصوص قضايا مثل الزواج المثلي (Barry)، هذا التشريع الذي على حد تعبيره كان سببا في ظهور تنظيم داعش الارهابي وتصاعده، حيث ادعى كيريل أن المسلمين هرعوا للانضمام إلى تنظيم داعش لتجنب جزء من الحضارة الغربية التي باتت تقبل المثليين و قال أيضا: "إنها ليست مفاجأة أن ينضم الكثيرون للتنظيم، و يمكنني عرض المزيد من الأمثلة المخيفة على مدى ظهور الحضارة الكافرة"(الجمل، 18 جانفي 2016).

خاتمة:

ما يمكن استنتاجه بعد ما تم التطرق إليه في المحاور السابقة أن العامل الديني يعتبر أحد المحددات الرئيسية التي يمكن أن تساعد على تقديم تفسير لبعض سياسات روسيا الخارجية سيما منذ بداية القرن الحادي والعشرين مع وصول نخب سياسية جديدة إلى روسيا عملت على إعادة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا مكانتها ودورها في المجتمع والدولة على الرغم من علمانية الدولة التي يؤكد عليها الدستور الروسي، ويعود اهتمام النخب بالبعد الديني والكنيسة الأرثوذكسية الروسية للعديد من الأسباب أهمها:

- تقاطع المصالح بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والدولة، حيث تسبب انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه في فقدان الكثير من الكنائس التي كانت تحت سيطرة بطريركية موسكو، ونفس الأمر بالنسبة للدولة التي تسعى إلى استعادة نفوذها على الأراضي والدول التي تمخض عنها تفكك الاتحاد السوفيتي ما استدعى تحالفها مع الكنيسة سيما وأن أغلب هذه الدول التي تم توصيفها بـ"دول الخارج القريب" تسودها العقيدة الأرثوذكسية.

- حاجة الدولة الملحة للكنيسة من أجل اضفاء البعد القَيْمي على السياسة الخارجية خصوصا في ظل اتجاه الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة إلى عولمة القيم الليبرالية الغربية، ما أبان في الأخير عن وجود صراع قيمي حضاري بين روسيا التي تسعى للحفاظ على خصوصيتها القَيمية والحضارية والغرب الذي ابتعد عن تعاليم الديانة المسيحية الحقة على حد ما يصرح به قادة الدولة والكنيسة الأرثوذكسية الروسية.
- تفطن النخب الحاكمة في روسيا إلى أهمية الدين من أجل اضفاء الشرعية على سياساتها الخارجية في العديد من الدول والمناطق، وهو ما حدث عند ضم روسيا لشبه جزيرة القرم على اثر الأزمة الأوكرانية الأخيرة حيث تصريحات الرئيس فلاديمير بوتين بخصوص هذه الخطوة كانت تحمل صبغة دينية، فقد برر ضم شبه جزيرة القرم بأهميتها الدينية المقدسة لكونها مهد المسيحية الأرثوذكسية حيث نال الأمير فلاديمير الأول عماده هناك، نفس الأمر ينسحب على السياسة الروسية تجاه سوريا والتدخل الروسي في سوريا من أجل الحرب على الإرهاب "تنظيم الدولة" التي تم توصيفها بالحرب المقدسة نظراً لأن أحد أهدافها يتمثل في حماية مسيحيي الشرق الأوسط في ظل تغافل الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة عن معاناة الأقليات المسيحية في الشرق الأوسط عموما وسوريا خصوصا، وهذا الحضور الكبير للكنيسة الأرثوذكسية يجعل السياسات الروسية تتسم بالطابع الثيوقراطي.

وفي الأخير فإنه يوصى أن تراعي الدراسات المستقبلية التي تعنى بمواضيع روسيا ولاسيما العربية منها العامل الديني في تحليلها للسياسة الروسية وخصوصا دور الكنيسة الأرثوذكسية التي أعيدت لها مكانتها بروسيا منذ تفكك الاتحاد السوفيتي بحيث أصبحت فاعلا مؤثرا على الصعيد السياسي بروسيا وبدرجة أكبر منذ تولي فلاديمير بوتين مقاليد الحكم سنة 2000، بالإضافة إلى أن الدراسات التي تتطرق إلى العامل الديني ودوره في الحياة السياسية بروسيا سوف توفر مادة علمية للباحثين المتخصصين في الشأن الروسي خصوصا وأن المكتبة في الوطن العربي عموما والجزائر خصوصا تعاني ندرة إذا لم يكن انعدام تام للمراجع من كتب وبحوث ومقالات التي تعنى بدور العامل الديني في السياسة الخارجية الروسية.

المراجع

1. واكيم، جمال (2012). *صراع القوى الكبرى في سوريا الأبعاد الجيوسياسية لأزمة 2011* . ط 02 . بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
2. جودة ، محمود خليفة (2016). *البحث عن المكانة روسيا بوتين وميلاد نظام عالمي جديد.* القاهرة: المكتب العربي للمعارف.
3. محفوض، عقيل سعيد(2018). *ب"إنتظار الجنرال سليماني؟" روسيا إزاء الأزمة السورية: الدوافع والإكراهات*. دمشق: مركز دمشق للأبحاث والدراسات .

4. خثلان ، صالح بن محمد(د.ت). *الدين والسياسة الخارجية الروسية*. (د.م): مركز الفكر الإستراتيجي للدراسات.
5. مدني، مايسة محمد(جانفي 2014). *"التدخل الروسي في الأزمة السورية"*. 04. مجلة كلية الإقتصاد العلمية.
6. قربان، أنطوان (جوان2017). *عن الدين والقومية في روسيا*، تقرير عن مؤتمر: روسيا والعالم العربي. بيروت: معهد عصام فارس للسياسات العامة والشؤون الدولية.
7. فيشان، جورج (26 مارس 2014). *أوكرانيا والقرم في السياسة الروسية*. ترجمة: محمود الحرثاني،(د.م.ن): مركز الجزيرة للدراسات. تاريخ الاطلاع 2021/02/12 من:
8. http://studies.aljazeera.net/mritems/Documents/2014/3/26/201432695824627734Ukraine%20and%20Crimea.pd
9. إيغوروف، أوليغ (25 فيفري 2015).*"الكنيسة والسلطة في روسيا: منافع متبادلة"*، تاريخ الاطلاع 2021/02/12 من:
10. https://www.alaraby.co.uk/politics/2015/2/24/%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%86%D9%8A%D8%B3%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%B7%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D9%85%D9%86%D8%A7%D9%81%D8%B9-%D9%85%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D9%84%D8%A9
11. جمل، منيرة(18 جانفي 2016).*"الأرثوذكسية الروسية: الشذوذ الجنسي سبب صعود داعش"*. تاريخ الاطلاع 2021/02/17 من: http://www.vetogate.com/2005164

12. Cwiek-Kapowicz, Jaroslaw(9 August 2010). "Role of Orthodox Church in Russian Foreign policy". BULLETIN.
13. Lomagin, Nikita(July 2012) ."Interest groups in Russian Foreign Policy : The invisible hand of Russian Orthodox Church ". Internationalة Politics. 01-19.
14. Petrenko, Galina (4-6 July 2012). Influence of Russian Orthodox Church on Russia’s Foreign Policy. Bremen : Jacob University.
15. Simons, Greg (September2016). "The Russian Orthodox Church : Toward a New, Global Role". 16(06). Cicero Foundation Great Debate Paper. 01-09.
16. Dimitrova, Antoaneta. Frear , Mtthew and Other (July2017) . "The element of Russia’s Soft Power : Chanels, Tools, and Actors promoting Russian influence in the Eastern Patnership Countries". 04. Eu-start. 04-50.
17. Laine, Veera . Saarelainen, Iris (septembre2017). "Spirituality as a Political Instrument : The Church, The Kremlin, and The Creation of « The Russian World »". 98. Fiia Working Paper. 01-33.
18. New World Encyclopedia (n.d). "Russian Orthodox church" . avialable from : http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Russian_Orthodox_Church, retrieved10/02/2021
19. Barry , Ellen (31 May 2012). "Russian Church is a strong voice Opposing Intervention in Syria", Avialable from : https://www.nytimes.com/2012/06/01/world/europe/russian-church-opposes-syrian-intervention.html, retrieved : 15/02/2021.